رحلة عروج إلى المغرب الإسلامي
من خلال مخطوط "خبر قدوم عروج إلى الجزائر وأخيه خيرالدين"

أ.محمد لعباسي*

تمهيد:

لقد كان البحر الأبيض المتوسط في القرن الخامس عشر الميلادي مسرحا لصراع عالمي، بين دولتين كبيرتين: إسبانية والدولة العثمانية، وكان لهذا الصراع الأثر الواضح على منطقة شمال إفريقيا، فاحتلت اسبانيا سواحل هذه المنطقة، مستغلة ضعف الدولة الزيانية وانحصار سلطتها على مدينة تلمسان وضواحيها من جهة، وعدم وجود قوة ترد هذا الاحتلال من جهة أخرى، وفي هذه الظروف ظهر رجلان امتاز بالشجاعة والقوة في محاربة النصارى، إذ اشتهرا بنجدة مسلمي الأندلس من اضطهاد النصارى.

لقد استنجد سكان منطقة القبائل ثم سكان مدينة الجزائر بالإخوة عروج وخير الدين بربروس، اللذان كانا مستقران بمدينة تونس، لمساعدتهم لتحرير سواحلهم من هذا المحتل.

ولمعرفة كيفية دخول عروج وأخيه خير الدين إلى منطقة المغرب الإسلامي، نحاول تتبع الطريق الذي اتخذه عروج للوصول إلى هذه المنطقة، اعتمادا على مخطوط: " خبر قدوم عروج إلى الجزائر وأخيه خير الدين".

– التعريف بالمخطوط:

1-التعريف بمؤلفه:

لا توجد في المخطوط أيّة إشارة، تدلّ على اسم مؤلفه، وكل ما يوجد في آخر ورقة منه، هو أنّ مفتي مدينة الجزائر ابن علي(1) هو الذي أمر بترجمته من اللغة التركية إلى العربية في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي.

وهناك عدة دراسات اعتمدت على هذا المخطوط، ولكنها لم تحدد مؤلفه، فيذكرونه على أساس أنّه مجهول، مثل دراسات الأستاذ أبي القاسم سعد الله، الأستاذ ناصر الدين سعيدوني، وغيرهما.

* - قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران

أما محمود علي عامر فيذكر: أنّ هناك نسخ موجودة في تركيا مكتوبة بخط يد خير الدين، لأنّه هو الذي " دوّن معاركه البحرية والبرية... كما أنّ الخط يؤكد أنّه خط خير الدين"(2). وهناك قول آخر يذكر أن خير الدين هو الذي أملى كتاب " غزوات عروج وخير الدين " على كاتبه سنان(3).

ولكن ألفاظ هذا المخطوط لا تدل على أن خير الدين هو الذي كتبه أو أملاه، فالضمير المستعمل فيه هو ضمير الغائب، ولو كتبه خير الدين بنفسه أو أملاه لأستعمل لفظ المتكلم، فعوضا أن نجد في المخطوط: " عزم خير الدين" أو" أراد خير الدين" وغيرها من الألفاظ، نجد: " عزمت" أو "أردت".

غير أن الكاتب لم يذكر المصادر التي اعتمد عليها في ذكر أخباره، بل يتحدث عن الوقائع وكأنّه كان حاضرا فيها. مما يوحي أنّه عاش في القرن العاشر الهجري الموافق للسادس عشر الميلادي.

2- وصف المخطوط:

توجد في المكتبة الوطنية – الحامة – بالجزائر أربعة نسخ لهذا المخطوط، مسجلة تحت الأرقام التالية: 1622، 1623، 2603، ورابعة موجودة في علبة المكروفيلم، وهي عبارة عن نسخة مصورة عن نسخة موجودة في رفوف المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس.

فالنسخة ذات رقم: 1622، بدايتها " باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم،الخبر عن قدوم عروج ريس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين بعده، وذكر أخبارهما وغزواتهما البحرية وكيفية ذلك على التفصيل". ثم يذكر أصل عروج وخير الدين، أما نهاية هذه النسخة: "... وكتبه بهذا المحل الفقير على الله تعالى محمد بن أحمد بن قاسم غفر له الله تعالى ذنبه وستر بفضله عيبه وكان الفراغ منه ليلة الأحد السابعة من ربيع الثاني من عام سبعة وسبعين ومائة وألف من هجرته صلى الله عليه وسلم". وهناك عبارة قبل هذه العبارة تدل على أن هذه النسخة منسوخة عن نسخة أخرى ناسخها هو محمد بن رمضان الدلسي.

هذه النسخة في حالة جيدة، إلا بعض الخروم غير المؤثرة الموجودة فيها. مسطرتها 140 X201مم، وعدد أوراقها هو 57 ورقة، وفي كل صفحة 25 سطرا، مكتوبة بخط مغربي واضح ومقروء، بالحبر الأسود، ويستعمل اللون الأحمر في كتابة عبارة : " رجعنا إلى خبر ..." مثلما هو في ظهر ورقة 06.أو كتابة بعض العناوين، مثل: "ذكر سبب سفر خير الدين إلى حضرة السلطان.." في ظهر ورقة 35.

أما النسخة ذات الرقم: 1623 بدايتها: " باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد الخبر عن قدوم عروج رايس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين نصرهم الله بعده، وذكر أخبارهما وغزواتهما البحرية وكيفية ذلك على التفصيل". ثم يذكر أصل عروج وخير الدين، أما في نهاية هذه النسخة لم يكتب اسم الناسخ، ولا تاريخ النسخ، وزاد قولا لأحد الشعراء حين قال:"... ولله در بعض الشعراء حيث قال في مدح عسكر الجزائر من أول قصيدة طويلة سلم على الجند المؤيد بالنصر ضراغم خلق الله في البر والبحر جيش بها الإسلام قال مراده فأصبح دين الله مبتسم الثغر في ما شغلهم إلا الجهاد جزاهم الودق خيرا يهون على الحصر انتهت بحمد الله الذي لا إله إلا هو ولا ربا غيره ولا معبود سواه " .

هذه النسخة في حالة جيدة، مسطرتها 201X 140مم، وعدد أوراقها هو 63 ورقة، وفي كل صفحة 21 سطرا، مكتوبة بخط مغربي واضح ومقروء، بالحبر الأسود، ويستعمل اللون الأحمر في كتابة بعض الألفاظ، منها أسماء الأعلام مثل: " خير الدين " و" السلطان .." في كل أوراق هذه النسخة.

والنسخة الثالثة ذات الرقم: 2603، بدايتها: " لبسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم الخبر عن قدوم عروج رايس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين، وذكر أخبارهما وغزواتهما البحرية وكيفية ذلك على التفصيل". ثم يذكر أصل عروج وخير الدين، أما في نهاية هذه النسخة زاد عبارة عن نهاية النسخة ذات الرقم:1622، وهي: "... وكان الفراغ من نسخه الفقير إلى الله تعالى محمد بن علي المدعو بن طبار غفر الله ولواديه ولأشياخه ولجميع المسلمين والمسلمات والمومنين والمومنات الأحياء منهم والأموات". هذا ما يدل على أن هذه النسخة منسوخة عن الأولى.

هذه النسخة موجودة ضمن مجموع به مخطوط: " الزهرة النائرة .." لمحمد بن رقية التلمساني، بها 63 ورقة عليها أرقام على صفحاتها ابتداء من الرقم 49 حتى الرقم 175، وكل صفحة بها 17 سطرا، مزخرفة في بداية النسخة، مكتوبة على دفتر مخطط باللون الأزرق، بخط مغربي مقروء وواضح. يستعمل اللون الأحمر في كتابة بعض الأسماء، وبعض العبارات مثل: " الحمد لله" ، " اللهم" .

ويذكر محمود علي عامر– في ترجمته لكتاب: " الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية" لمؤلفه سامح ألتر – أنّه اعتمد في هذه الترجمة على ثلاث نسخ من مخطوطة عنوانها: " غزوات خير الدين"، نسخة واحدة في مكتبة

الطوب قابي بتركيا، ولكن هذه النسخة ناقصة، والثانية في مكتبة دار الفنون في البلد نفسه، ولكن تحت عنوان: " تاريخ الجزائر"، والثالثة موجودة في هذه المكتبة، ولكنها منظومة(4).

ومن خلال ترجمته لهذا الكتاب، والمعلومات التي قدمها فيه، لاحظ الباحث أنّ هذه النسخ التي اعتمد عليها هي نفسها مخطوط: " خبر قدوم عروج...". ويبدو أنّ هذه النسخ الأخيرة الموجودة في تركيا، هي أصل مخطوط: " خبر قدوم عروج..." .

3 – أهميته:

لهذا المخطوط قيمة علمية كبيرة، إذ يعتبر من أهم المصادر التي تؤرخ لبداية التواجد التركي بالجزائر، فالمصادر التي تناولت هذه الفترة لم تفصّل لنا المعلومات المذكورة في هذا المصدر، وفي هذا الصدد يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "... قليلة هي الأخبار التي تتحدث عن سير حكام الجزائر خلال العهد العثماني، وقليل هم أولئك الحكام الذين ظفروا بعناية الكتاب المعاصرين لهم، فخلّدوهم في كتاب أو في قصيدة، ولولا الأخبار التي وردت عن خير الدين وأخيه عروج في كتاب الغزوات لما عرفنا عنهما إلا أسماءهما.." (5).

ولأهميته في تاريخ هذه المنطقة خلال بداية القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي، ترجمه جون ميشال دو بردي في ما بين سنتي:1192هـ – 1778م و1194هـ – 1780م، من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان: " Foundation de la Regence d'Alger ,Histoire des Barbarossa " "، وفي كل حادثة من هذا الكتاب يقدم لها ببعض الكلمات، كما أنه يختمها بتعليق من عنده، وكثيرا ما كان يقارن بين ما جاء في المخطوط وبين ما كتبه المؤرخ هايدو عن الحدث نفسه. ونشر هذه الترجمة السيدان: ساندر انج وفرديناند دنيس في جزأين، سنة 1253هـ – 1837م بباريس.

وقد اعتمده المؤرخون العرب وغيرهم في دراساتهم التاريخية، المتعلقة بحياة عروج وأخيه خير الدين، مثل جلبي في كتابه: " تحفة الكبار في أخبار البحار" أو بالتواجد العثماني بالجزائر أو علاقة أوربا مع الجزائر، مثل محمد بن رقيه التلمساني(6) في مخطوطه: " الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكفرة ".

كما نشره الأستاذ: نور الدين عبد القادر، بالجزائر سنة 1357هـ – 1934، في كتاب من 124 صفحة، وأضاف إليه جزءا خصّه بتعليقه وإيضاحه في 20 صفحة، وقد غيّر عنوانه إلى:" كتاب غزوات عروج وخير الدين"، واعتمد على نسخة واحدة والتي تحمل رقم: 1622.

ومن الملاحظات أيضا على هذا النشر، أن الناشر أعاد كتابة المخطوط مع الإبقاء على الكثير من الأخطاء المتنوعة، الإملائية منها، و النحوية وغيرها، كما أنه أهمل علامات الوقف تماما، إلى جانب تخريج بعض الأعلام والأماكن، وشرحه لبعض الكلمات، لم يذكر مصادرها التي اعتمد عليها في ذلك، وهنا كان الغرض المطلوب ناقصا.

موضوعاته:

يعتبر مخطوط: "خبر قدوم عروج رايس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين"، واحدا من المصادر العربية القليلة التي تتناول فترة بداية دخول الأتراك إلى الجزائر، فموضوع هذا المخطوط تاريخي بحث، ينقل مسيرة الإخوة عروج وخير الدين من جزيرة مدلي، ووصولهما إلى تونس واستقرارهما بها، ثم دخولهما إلى الجزائر، التي ينقل لنا عنها هذا المخطوط تلك المعارك التي قام بها الإخوة إلى غاية حملة شارلكان على الجزائر سنة948هـ - 1541م، مع إهماله لبعض الأعمال التي قام بها خير الدين، فيما بين سنتي:927هـ - 1520م و931هـ - 1524م المتعلقة بفتح مدينة القل، وعنابة وقسنطينة.

فأحيانا يذكر الأحداث التي عاشها عروج وخير الدين بالجزائر بالتفصيل، خصوصا حملات النصارى على الجزائر، وكذا بعض المواجهات مع المتمردين، وسرعان ما نجده يختصر في بعض الأحيان الأخرى. معتمدا على التسلسل الزمني للأحداث مع إهماله لضبط وتقييد تواريخها.

ويشير هذا المخطوط إلى الحالة السياسية للبلاد خلال هذه الفترة، فهو ينقل تنافس أبناء الأسرة الحاكمة في الدولة الزيّانية حول الحكم، ودخولهم في طاعة ملوك إسبانيا تارة، قصد أن يضمنوا لهم البقاء في السلطة، وتارة في طاعة خير الدين.

ويبيّن كذلك الحالة الاقتصادية للبلاد، فيذكر مثلا: أن قلعة بني راشد كانت تصدّر المنتجات الزراعية إلى المدن المجاورة مثل وهران. كما يبيّن أنّ المجتمع الجزائري كان يتكون من ثلاث عناصر هم: أهل البلد، الأتراك، والأندلسيون، الذين هاجروا إلى الجزائر، حينما يذكر المشاركين في معركة من المعارك التي خاضها خير الدين في الجزائر.

4 – لغته وأسلوبه:

وتمتاز لغته بالسهولة، تميل إلى العامية، يستعمل بعض الألفاظ مثل: "الطاغية"، ويقصد بها ملك اسبانيا، وكذا كلمة: " الملاعن "، و" الكفار" ويقصد بهما النصارى، ويسمي جيش خير الدين بـ: "جماعة الغزاة "، كما يستعمل ألفاظا عامية مثل: " تفاول " أي تفاءل، و"سقط في يد النصارى"، والصحيح هو: فسقط في أيدي النصارى، ويورد في كتابته ألفاظا تركية مثل: "صمصوم" وهو: نوع من كلاب الصيد، " الإسقالة "، ومعناها السلم[7].

أما أسلوبه فهو سردي بسيط، يمدح فيه خير الدين وجيشه، ويذّم فيه النصارى، يستعمل المقابلة كثيرا، حيث يقابل صورة جيش خير الدين مع صورة جيش النصارى، قبل بدء المعركة بينهما.

وفي هذا المخطوط أخطاء نحوية وإملائية وأسلوبية كثيرة. ويكتب دون وضع عناوين ترشد القارئ، ولكنه عندما يربط حدث مع آخر قد مضى يقول:" ...رجعنا إلى خبر..." ويذكر الخبر، وأحيانا لا يحدد الأشخاص الذين يذكرهم بأسمائهم، بل يكتفي بوظيفتهم فقط، كأن يقول السلطان الحفصي مثلا، دون أن يذكر اسمه، أو يذكر صاحب تلمسان، دون تحديد من هو؟

رحلة عروج من هذا المخطوط:

لقد رصد لنا هذا المخطوط رحلة عروج إلى المغرب الإسلامي انطلاقا من **جزيرة مدلي**[8] مسقط رأسه إلى **الجزائر**، فمنذ أن وقع عروج أسيرا في **جزيرة رودس**[9]، وما عناه في أسره، وكيفية فراره منه، ووصوله إلى مدينة **أضالية**[10] التي كانت لصديقه قرقود أخ السلطان العثماني سليم بن محمد، ولما استقرّ بهذه المدينة ، واستراح من تعب السفر، وجد رجلا يريد الإبحار نحو مصر، فطلب من عروج أن يسافر معه، لخبرته الكبيرة في ركوب البحار.

وعند وصولهم **مصر**، أعطى صاحب مصر مركبا لعروج، لمصاحبة مراكبه للذهاب إلى **جزيرة كريت**[11] لجلب الخشب الذي يستعمل في صناعة السفن، وعند دخولهم هذه الجزيرة هجمت عليهم سفن للإفرنج، ففرّ عروج ومن معه إلى أضالية وبها لقيّ صديقه قرقود الذي صنع له جفنا، فغزا به جزيرة رودس، وبينما هو في إحدى مراسي هذه المدينة هجم عليه حراسه، فاضطر عروج الرجوع إلى **أضالية**، في الوقت الذي كان واليها قرقود **بمغنيسة**[12]، فلحقه إليها، وقدّم له مجموعة من الهدايا، فاستحسنها قرقود، وأرسل كتابا مع عروج إلى قاضي

أزمير لينشأ له سفينة حربية، ولما أوصل عروج هذا الكتاب للقاضي المذكور وسلّمه أيّاه، فامتثل لأمر قرقود، ومنح عروج جفنا حربيا، فاتجه به إلى **فوجه** ومنها إلى بلاد النصارى للغزو.

ثمّ قصد عروج **جزيرة مدلي** مسقط رأسه، وفيها التقى أخويه خيرالدين وإسحاق، ثمّ خرج بعدها إلى بولية لغزوها، فلقي سفينتين للنصارى، فأخذها بما فيها من المتاع، ثمّ أراد أن يواصل سفره إلى **ناحية الروملي**[13]، فاجتاز على **جزيرة أجربوز**[14]، وأراد الرسو بأحد مراسيها، ولكن السفن النصرانية حالت بينه وبين دخوله إليه، مما دفعه إلى مهاجمتهم، وبفضل عزيمته وشجاعته هزمهم وغنم ما في سفنهم من الغنائم المتنوعة، ثمّ عزم على الرجوع إلى **جزيرة مدلي** بهذه الغنيمة الهائلة، ولكنه سمع سوء تفاهم وقع بين قرقود وأخيه السلطان، فخشي عروج على نفسه، وغيّر وجهته نحو **مصر**.

ولما دخل عروج هذا البلد وجّه بهدية عظيمة إلى سلطانه، واستأذنه في الإقامة عندهم، فقبل السلطان شريطة أن لا يعترض عروج السفن المصرية، وقضى هذا الأخير فصل الشتاء في **مصر**، ثمّ اتجه نحو بلاد الأندلس لغزو النصارى، فغنم في سفره.

وأثناء عودته إلى مصر ألقته الريح إلى **جزيرة جربة**[15]، فأودع فيها غنائمه ثمّ رجع لغزو بلاد النصارى مرة أخرى، فغنم وسبى منها كثيرا، ورجع إلى **مدينة تونس**، ولما دخلها قدّم هدية إلى سلطانها الحفصي، واستأذنه في الإقامة ببلاده، فقبل مقابل أن يدفع له عروج خمس الغنائم التي يتحصل عليها في غزواته لبلاد النصارى.

ومن مدينة تونس، اتجه عروج إلى **جزيرة جربة** لحمل ما أودعه فيها من الغنائم، وهنا التقى بأخيه خير الدين الذي أتاه يعلمه ما وقع بين قرقود وأخيه السلطان سليم، ليأخذ عروج احتياطات من هذا الأمر.

ثمّ رجعا إلى **مدينة تونس**، فأكرم سلطانها نزلهما ورعاهما، وخرجا منها إلى بلاد الأندلس لغزو النصارى تارة، ومساعدة المسلمين المضطهدين تارة أخرى، وتكرر هذا العمل مرارا عديدة، وغنما من خلاله الغنائم الكثيرة والمتنوعة، وفي إحدى خرجاتهما أُصيب عروج بجروح تألّم منها كثيرا، وبقي يعالج هذه الجروح في مدينة تونس.

وبعدما شُفي عروج من جروحه، سمع بمرور سفن اسبانية متجهة نحو جنوة، فأراد اعتراض طريقها، ولكن سمع أيضا بدخول المحتل الإسباني **لمدينة بجاية**، فقرر مع أخيه خير الدين تحرير هذه المدينة، فسفرا نحوها، وأرسيا بناحيتها، ثمّ رآ خمسة عشر سفينة اسبانية قادمة إلى بجاية، فأبحرا وكأنه فار من هذه السفن، ولما توسّطا البحر بدآ

يقللان في السير حتى لحقتهم مراكب العدو طمعا في إلقاء القبض عليهما، ولما اقتربوا منهما رموهما بالسلاح، فهجم عليهم عروج ومن معه، وأغرق عروج سفينة منهم وأخذ خير الدين سفينة أخرى، وفرّ الباقون إلى بجاية.

ثمّ قرر عروج النزول ببرّ بجاية لمهاجمة العدو، وكان معه خمسين من المجاهدين الذين كانوا في مركبه، فلقوا خمسين نصرانيا، فقتلهم عروج وجماعته جميعا، ثمّ دنى من مدينة بجاية، وعند اقترابه منها رمى الحراس عليه بالسلاح، فأصيب عروج في ذراعه، فاشتدّ عليه الألم ممّا اضطر إلى قطع يده في **مدينة تونس** بعد نصيحة الأطباء له.

ولما برء عروج وهو في تونس جاءته نداءات الاستغاثة من مسلمي الأندلس، لمساعدتهم على عبور البحر ليصلوا إلى الضفة المقابلة لهم، فلبيا هذا النداء، واستطعا أن ينقذا من يمكن إنقاذه. ثمّ اتجها إلى جزيرة مدلي، وأقاما فيها مدّة قصيرة، وعادا إلى تونس.

وفي طريق رجوعهما إلى هذه البلاد، أرسيا بمرسى يقال له **بنونية**، فوجد بها أربعة أجفان، فاستولى عروج وأخوه عليها بعد قتالهم، وعند دخولهما تونس، بعثا هدية عظيمة من نفائس الأموال ووجهاها إلى السلطان العثماني سليم، ثمّ قررا التوجه نحو **مدينة سبتة**، فخرجا في عشرة سفن، وفي طريقه أرسوا **بناحية بجاية**، فسمع بهما أهل هذه المنطقة، وبعثوا إليهما كتابا يدعونهما لمساعدتهم في تحرير مدينتهم من المحتل الإسباني، فقبلا وشاركا أهل البلد في محاولة طرد النصارى من هذه المدينة، ودامت المعركة بين الطرفين ثلاثة أيام، استطاع فيها عروج من تحرير أحد الحصون، وأسر حوالي خمسمائة نصراني، فانتشر هذا الخبر أرجاء هذه المنطقة، فتوافدت عليه أكثر من عشرين ألف رجل مددا له، ثمّ فرضوا الحصار على نصارى بجاية أربعة وعشرين يوما، وخلال هذه المدة نفذ بارود عروج، ممّا جعله يطلبه من السلطان الحفصي، فرفض هذا الأخير مساعدة المجاهدين ببجاية.

ولما عجز عروج في تحرير هذه المدينة بسبب نقص الذخيرة، توجّه مع أخيه خير الدين إلى **مدينة جيجل**، ووجد بها الجنويين، فطردهم منها، واستقرّ بها، وبذلك تكون هذه المدينة أول قاعدة للأتراك بالجزائر.

وأثناء إقامته بجيجل جاءه طلب من مشايخ **مدينة الجزائر** وعلمائها، لمساعدتهم في تحرير الحصن المقابل لمدينتهم من أيدي النصارى، فامتثل لطلبهم، ولبّى دعوتهم، ووصل إليهم في حوالي مائتين وثمانين من الجنود، فرحّب أهل هذه المدينة بهم، وأكرموهم، وقبل مهاجمة عروج الحصن[16] الذي اشتكى منه أهل الجزائر كثيرا، هجم

الأسبان على مدينة الجزائر في حملة كبيرة، ونزلوا ببر المدينة، ثمّ خرج لهم عروج لمحاربتهم، وكان القتال بينهم شديد، كما كان النصر في النهاية لعروج وأصحابه.

وبعد هذا النصر المحقق، قسّم عروج البلاد إلى قسمين: فجعل الجهة الشرقية تحت حكم أخيه خير الدين ومقره مدينة دلس، والجهة الغربية تحت حكمه، ومقره مدينة الجزائر. وهنا بدأ عروج ينظم الحكم بالجزائر.

ثمّ أن القائم بمدينة تنس الموالي لبني زيّان بتلمسان كان يغير على مقاطعة عروج الذي استقدم أخاه خيرالدين إلى مدينة الجزائر فاستنابه بها وجمع عسكره واستفتى العلماء في أمر هذا الرجل، فأباحوا بدمه، وكان قد بلغه كذلك أن سلطان تلمسان قد أضرّ بأهلها وعمّهم جوره وظلمه، فعزم الوصول إليه.

ولما دخل عروج **تلمسان** مرورا على مستغانم، فرّ سلطانها17 إلى المغرب، ثمّ أصدر عروج قرارا يمنع فيه أهل قلعة بني راشد[18] من إمدادهم النصارى الذين بوهران بما كانوا يمدونهم من المؤن، ضاربا بذلك حصارا عليهم، مما أضرهم كثيرا.

وهنا استغلّ صاحب تلمسان الفارّ إلى المغرب هذه الظروف، ليتصل بنصارى وهران ويعرض عليهم خدماته، فطلب منهم مساعدته على قتال عروج، وإجباره على الخروج من بلد الجزائر.

فخرج صاحب تلمسان إلى قلعة بني راشد في جيش كبير، مدعوما من طرف المحتّل الإسباني، وفيها وقع قتال عظيم بينه وبين جيش إسحاق أخ عروج، أدت في نهايتها إلى استشهاد هذا الأخير، ثمّ اتجهت هذه القوة العسكرية الإسبانية إلى تلمسان، فحاصروها ستة وعشرين يوما، ثمّة خرج إليهم عروج لقتالهم فاستشهد هو ومن معه من جنوده.

هذه هي الرحلة التي قام بها عروج من مسقط رأسه جزيرة مدلي إلى منطقة الغرب الإسلامي، متخذا البحر ميدانا لجهاده، ومنطقة شمال إفريقيا ملجأ يلتجئ إليها. ويمكن للباحث أن يقف عند تتبع خطوات هذه الرحلة على مجوعة من النقاط، أهمها:

أنّ عروج كان على اتصال مباشر مع الأسرة الحاكمة في الخلافة العثمانية، إذ كانت تربطه علاقة حميمية مع قرقود أخ السلطان العثماني سليم الأول، وكان كل مرة يبعث بهدايا ثمينة إلى هذا السلطان.

ثمّ قضية دخول العثمانيين إلى الجزائر، أنّهم جاؤوا بطلب من أهلها لمساعدتهم على طرد المحتّل الإسباني من سواحلهم، وهؤلاء السكان قد شاركوا في معارك عدّة مع عروج في قتال الإسبانيين.

1- محمد بن محمد بن محمد بن المهدي بن رمضان بن يوسف العلج: ولد حوالي سنة 1090هـ- 1679م، وتوفي على الأرجح سنة 1169هـ- 1755م، وهو من أسرة ذات صلة بالوظائف الرسمية تولى الفتوى الحنفية بمدينة الجزائر سنة 1150هـ-1736م، واستمر بها إلى سنة 1169هـ-1755م. وكان على صداقة متينة مع الأديب أحمد بن عمار الجزائري، وقد تبادل معه القصائد. أبو القاسم سعد الله – تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر(16م – 20م) – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر- 1981- ج2 – ص، ص: 300- 310؛ – أبو القاسم سعد الله – أشعار جزائرية – المؤسسة الوطنية للكتاب -1988- ص: 197؛ نور الدين عبد القادر- صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها حتى انتهاء العهد التركي – مطبعة البعث – الجزائر – 1965 – ص: 194، ينظر – إسماعيل باشا البغدادي – هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المدفين – المكتبة الإسلامية – إيران – 1947- ج: 02- ص: 328.

2 – سامح ألتر – الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية – ترجمة: د/ محمود علي عامر – دار النهضة العربية – بيروت – ط: 01 – ص: 29.

3- ينظر – ابن أشنهو – دخول الأتراك إلى الجزائر – الطباعة الشعبية للجيش – الجزائر – ص:07.

4- ينظر في هامش – عزيز سامح ألتر – الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية – ص: 29

5 – أبو القاسم سعد الله – أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر – ج: 02 – ص: 321.

6- محمد بن رقية بن عبد الرحمان الجيلالي التلمساني ، توفي بعد سنة 1194هـ/ 1780م، كان من العارفين بالعلوم الفقهية واللغوية، قام بتصنيف في تاريخ غارات النصارى على الجزائر في كتاب " الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة". ينظر- ناصر الدين سعيدوني – من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين – دار الغرب الإسلامي – لبنان – ط: 01 – 1999 – ص: 425.

7 – محمد بن رقية بن عبد الرحمان الجيلالي التلمساني ، توفي بعد سنة 1194هـ/ 1780م، كان من العارفين بالعلوم الفقهية واللغوية، قام بتصنيف في تاريخ غارات النصارى على الجزائر في كتاب " الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة". ينظر- ناصر الدين سعيدوني – من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين – دار الغرب الإسلامي – لبنان – ط: 01 – 1999 – ص: 425.

8 -جزيرة مجلي: جزيرة يونانية فتحها السلطان محمد الفاتح سنة 1457م ، وأمر بإبقاء حامية عسكرية فيها،ينظر– عزيز سامح التر – الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية – ص : 27.

9- رودس: جزيرة في البحر، وهي من الثغور الشامية أو الجزرية، افتتحها جنادة بن أبي أمية عنوة في خلافة معاوية بن أبي سفيان. ينظر – البكري – معجم ما استعجم من البلاد والمواضع – ص: 683.

10 – أضالية :مدينة في إقليم القرمان بجنوب أسيا الصغرى. ينظر، مجهول ، غزوات عروج وخير الدين، تعليق وتصحيح: عبد القادر عبد الكريم،ص: 131.

11- كريت:أو كريد، جزيرة يونانية، بالبحر المتوسط. ينظر المصدر نفسه، ص:131

12- مغنيسة : مدينة بآسيا الصغرى، بقرب أزمير وتسمى منيسة، ينظر، المصدر نفسه، ص:132.

13- الروملي: الروم أيلي، عمالة بالبلقان وهي من مملكة البلغار، ينظر المصدر نفسه، ص:131.

14-أجربوز : جزيرة يونانية في بحر الأرخبيل، ينظر المصدر نفسه،ص:130.

15- جربة : جزيرة تونسية،

16- البنيون : الصخرة العالية .وهي الصخرة التي أحتلها الإسبانيون وبنوا عليها قلعة، وهي بمرسى الجزائر.

ينظر – نورالدين عبدالقادر – صفحات في تاريخ مدينة الجزائر – ص :48.

ينظر – الحسن الوزان – المصدر السابق – ص :38.

17- هو أبو زيان أحمد الثاني: الذي يولى الحكم في سنة 923هـ/1517م، ينظر عبدالرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ،ج:3،ديوان المطبوعات الجامعية،ص:42.